

ملخص المذهب البرجماتي¹

(مع قراءة المذكرة: من ص 66-72 ومن ص 148-159)

البرجماتية أو الذرائعية (Pragmatism) هي مذهب فلسفي اجتماعي يقول بأن الحقيقة توجد في جملة التجربة الإنسانية لا في الفكر النظري البعيد عن الواقع. وأن المعرفة آلة أو وظيفة في خدمة مطالب الحياة، وأن صدق قضية ما: هو في كونها مفيدة للناس. وهي تعتبر إسهام فلسفي أميركي، ساد بسيادة النموذج الأمريكي وانتشر في أوروبا.

فقد نشأت البرجماتية كمذهب عملي في الولايات المتحدة الأمريكية مع بداية القرن العشرين، وقد وجدت في النظام الرأسمالي الحر الذي يقوم على المنافسة الفردية، خير تربة للنمو والازدهار. ولذا أصبحت هي الطابع المميز للسياسة الأمريكية وفلسفة الأعمال الأمريكية كذلك، لأنها تجعل الفائدة العملية معياراً للتقدم بغض النظر عن المحتوى الفكري أو الأخلاقي أو العقائدي.

تُعرف هذه الفلسفة بعدة أسماء، منها: المذهب العملي، المذهب النفعي، المذهب الذرائعي أو فلسفة الفعل.

أبرز شخصيات هذه الفلسفة:

هذا المذهب تشكل على يد ثلاثة مفكرين:

1- تشارلس بيرس (1839 - 1914م)، ويعد مبتكر كلمة البرجماتية في الفلسفة المعاصرة. عمل محاضراً في جامعة هارفارد الأمريكية، وكان متأثراً بدارون ووصل إلى مثل آرائه. وكان أثره عميقاً في الفلاسفة الأمريكيين الذين أتوا بعده، . وهو أول من حاول توضيح

¹ للمزيد عن هذه المذهب، راجع: مذكرة المنهج، وموسوعة المذاهب الفكرية المعاصرة.

كلمة "البرجماتية" في مقال له بعنوان: (كيف نجعل أفكارنا واضحة)، وهو أول من أدخل هذه اللفظة في الفلسفة.

2- **وليم جيمس (1842 - 1910م)**، وهو عالم نفسي وفيلسوف أمريكي من أصل سويدي بنى مذهب الذرائعية البرجماتية على أصول أفكار بيرس، ويؤكد أن العمل والمنفعة هما مقياس صحة الفكرة ودليل صدقها.

3- **جون ديوي (1856 - 1952م)** فيلسوف أمريكي، تأثر بالفلسفة الذرائعية، وكان له تأثير واسع في المجتمع الأمريكي وغيره من المجتمعات الغربية، إذ كان يعتقد أن الفلسفة مهمة إنسانية قلباً وقالباً وعليها أن نحكم عليها في ضوء تأثيرها الاجتماعي أو الثقافي.

زبدة المذهب: يقول وليم جيمس: "أن الحقيقة هي مطابقة الأشياء لمنفعتنا لا مطابقة الفكر للأشياء". فإذا تضاربت وتعارضت آراء وأفكار الإنسان كان أحقها وأصدقها هو أنفعها وأجداها، والنفع هو الذي تنهض التجربة العملية دليلاً على فائدته.

وقد أعلنوا أن هدفهم هو: تغيير العالم وإعادة تنظيمه وتحقيق السعادة للإنسان.

أما موقفهم من الدين: فالبرجماتية تنكر الحقائق الدينية وتهاجم الدين، وتركز هجومهم على نقطتين: أولاً: أن التفكير "الميتافيزيقي" لا يهتم بما يتصل بسيطرة الإنسان على الطبيعة، ثانياً: اهتمام الدين بأمور لا علاقة لها بحياة الإنسان جعله عائقاً للعلم والتجربة، وأغلق عقول الناس عن البحث العلمي. يقول **جون ديوي:** "على الفلسفة ألا تتجه إلى معرفة كيفية العالم الخارجي، ولكن عليها أن تتجه إلى محاولة معرفة كيفية السيطرة عليه".

دور العقل: يعتقدون أن العقل موجه إلى العمل دون النظر، فالنتائج هي المهمة، وميزان صدق الفكرة ليس في كونها صادقة في نفسها بل في التحقق من منفعتها عن طريق التجربة، أي كونها تؤدي إلى النجاح. فالعقيدة الصحيحة عندهم هي التي تأتي بالنجاح وتحقق الأغراض. فالعقل خُلِقَ

أداة للحياة ووسيلة لحفظها وكمالها، فليست مهمته تفسير عالم الغيب المجهول، بل يجب أن يتوجه للحياة العملية الواقعية.

مقياس الحق: عندهم هو المنفعة العملية المادية والعمل المنتج، والمنفعة هي المحك الوحيد لصدق الأحكام وصواب الأفكار، وليس العقل. ولحسم النزاع في القضايا الفكرية يتم عرضها على هذا المحك (نحن مسيرون أم مخيرون؟ العالم مادي أو روحي؟).

الإيمان بالله والدين: يرون أن الإيمان بالله والدين إذا كانت نتائجه نافعة فهو صادق! ويؤكد ولیم جیمس في كتبه الدينية: أن الاعتقاد الديني صحيح، ليس لأنه حق في ذاته، ولكن لأنه ينظم حياة الناس ويبحث فيهم الطاقة.

القيم الأخلاقية الدينية: تقبل البرجماتية القيم الأخلاقية الدينية لا على أساس صحتها بل على أساس فوائدها العملية في تنظيم العلاقات الاجتماعية بين الناس.

نقد المذهب البرجماتي:

نقد البرجماتية فلسفياً: وجه لها النقد من بعض الفلاسفة مثل: برتراند رسل وإميل بوترو وجون ماكوري:

- 1- أنها فلسفة قديمة وليست جديدة فهي في جوهرها فلسفة رواقية.
- 2- أنه بناء على هذه الفلسفة لا توجد فكرة يقينية في ذاتها إلا بعد أن تحدث لها نتائج نافعة، فتقرير كون الفكرة صادقة لأنها مفيدة، ينسف ذاتية الحقيقة، فهو يسمح بصدق الفكرة لأنها "مفيدة ونافعة" فقط لشخص ما، ويكذبها لعدم وجودها عند الآخرين. وهكذا طرح هذا المذهب الحقيقة على أنها لعبة ذاتية للأفكار التي تستهوي الإنسان فائدتها فيعتقد في صدقها. فلا توجد حقائق وقيم مطلقة عند البرجمائين، فالحقائق والقيم عندهم نسبية متغيرة بحسب الزمن والأشخاص.

3- حاولت الفلسفة البرجماتية أن تثبت أن اعتناق الدين والإيمان بالله حق، لأنه يتحول عند المؤمن إلى سلوك ناجح في حياته، فالإيمان يساعد صاحبه على احتمال الكوارث ويجعله أقدر على الصبر والعمل، بعكس الإلحاد الذي يدفع بصاحبه إلى الانتحار إذا أصابته كارثة. فالدين حسب فلسفتهم حق لأنه مفيد وليس حقاً لأنه حقيقة، وهذا هدم لحقيقة الدين!

4- القول بنسبية القيم الأخلاقية والعقائد والإيمان تدمير للقيم والأخلاق والعقائد والإيمان. إذا الأخلاق والدين والعقائد تقوم على حقائق ثابتة وحقّة في ذاتها، وقيمتها مطلقة والحق قيمة مطلقة في ذاته وليست قيمة نسبية. والقول بنسبيته قول يدعو للفوضى المدمرة. فمن المنطلق البراجماتي -مثلاً- يكون اللص والقاتل، ناجحاً في حياته، وعمله مقبولا طالما أنه لم يتم القبض عليه، وما زال يحقق المكاسب من تلك الجرائم. ولا شك أن ذلك تقويضٌ للمجتمعات الإنسانية اخلاقيا وقانونيا ودينيا.

5- تعليق الحق بالنتائج تجعل المجتمع فريسة للأقوياء وفق مبدأ التفوق والغلبة. فالبرجماتية فتحت الباب على مصراعيه لتطبيق شريعة الغاب، وأن يسحق القوي الضعيف، حتى يحقق المنفعة، ويكون لعمله أثرونتيجة.

6- فيها اعتبار الحق والخير كالسلعة التجارية المطروحة في الأسواق، لا قيمة حقيقية لها. يقول الدكتور توفيق الطويل في تقييم هذه الفلسفة: "ويكفي أن تعتبر البرجماتية الحق أو الخير كالسلعة المطروحة في الأسواق، قيمتها لا تقوم في ذاتها بل في الثمن الذي يدفع فيها فعلاً، فالحق فيما يقول جيمس كورقة نقد تظل صالحة للتعامل حتى يثبت زيفها، ولم يجد أصحاب البرجماتية غضاضة في النظر إلى الحق أو الخير، كما ينظرون إلى السلعة التي تطرح في الأسواق، هذه هي العقلية الأمريكية في الفلسفة وفي الأخلاق وفي السياسة وفي كل مجال".

فالحلاصة هي: أن البرجماتية تؤدي لكوارث ثلاثة: كما يرى بعض المفكرين، وهي:

أ- اللاأخلاقية، لأنها تجعل الفضائل ليست مقصودة لذاتها، ولكنها تفيد الرأسمالي في تعامله مع غيره.

ب- الارتباط الوثيق بالحرب، لأنها تبررها ما دام فيها منفعة للغالب.

ج- الانحرافات السلوكية وأظهرها الإجرام، إذ أن فتح الباب على مصراعيه للمنافسة والصراعات من شأنه تمجيد العنف، ويتضح الانحراف بصورة أخرى في شرب المسكرات والمخدرات وعقارات الهلوسة وغيرها، وتفسيرها أنها ظاهرة هروبية من واقع العنف والمنافسة المريعة التي لا ترحم.

نقد البرجماتية إسلامياً:

- 1- الاجتهاد والجدية في العمل أمر محمود يبحث عليه الإسلام بلا شك.
- 2- المؤمن يؤمن بالله ليس لأنه يريد النفع المادي، بل لأنه متقن أن إيمانه حق وصدق، ومن ثم تحصل نتائج تابعه لإيمانه وليس العكس. وهذا بخلاف البرجماتية التي تريد أن تنتزع من الدين فائدته الدنيوية فقط، وعلى هذا المعيار وحده ينبغي صدق الدين.
- 3- الإيمان الديني يقوم على القناعة اليقينية وليس مجرد المنفعة، وهذا الاعتقاد البرجماتي الذي يجعل الدين مجرد أداة نفع باطل، لأنه أخضع أعظم علاقة تربط بين العبد وربّه عز وجل إلى مجرد علاقة نفعية تجارية تتأرجح بين الإيجاب والسلب.
- 4- أن مفهوم الخير والنفع مفهوم ثابت وليس مفهوم نفعي خاضع لمنفعة الفرد، والشرع هو الذي يرتب عليهما الثواب والعقاب.
- 5- يفرق الإسلام بين الخير والنفع وبين الشر والضرر. فالخير قد يترتب عليه ضرر، والشر قد يترتب عليه منفعة، لكن حصول الضرر من فعل الخير لا يجعل الخير شراً، وكذلك حصول المنفعة من فعل الشر لا تجعل الشر خيراً. فبر الوالدين والصدق والكرم

والشجاعة والجهاد في سبيل الله قد يترتب عليها الضرر في الوقت أو المال أو النفس، لكن هذا الضرر لا يجعل تلك الأمور شرًا، بل هي خير في نفسها وإن ترتب عليها بعض الضرر الجزئي. وكذلك السرقة والغش والخداع والنفاق قد يترتب عليها بعض المنافع المادية، لكن تلك المنافع لا تحول تلك الشرور والقبائح إلى كونها خيرات في نفسها. وهذا بخلاف فلسفة البرجماتية التي ترى أن مقياس الحقيقة هي أن "الفكرة صادقة عندما تكون مفيدة. ومعنى ذلك أن النفع والضرر هما اللذان يحددان الأخذ بفكرة ما أو رفضها".

6- القيم الأخلاقية في الإسلام حقيقة وهي أيضًا ضرورة لبقاء وإقامة المجتمعات الإنسانية.